

النور والظلام في القرآن الكريم

د. محمد آدم محمد صديق

مستخلص البحث:

للنور أهمية في حياة العباد ، بل لجميع المخلوقات ، الحياة لا يمكن أن تستمر من دون نور ، فالله تعالى سمي نفسه نوراً ، ووصف نفسه بالنور ، وجعل نور مخلوقاته من نوره ، وجعل كتبه نوراً ، ونبيه نوراً ، ودينه نوراً ، وصلاته نوراً ، وجعل في قلوب أوليائه نوراً ، وجعل دار كرامته نوراً .

Abstract:

Light has an importance in the life of worshippers, even to all creatures , and life won't continue without it, and "Alla" , His Highness has named Himself as, "Light", and described Himself as, "Light", and made the light of His creatures from His light , and He made His Books, "Light", His prophet "Light", His religion, "light", His prayer , "light" and He made light in His believers' hearts, and He made His paradise "light", and he prohibited "light" from the disbelievers .

.....
أستاذ مشارك ، كلية أصول الدين . جامعة أم درمان الإسلامية

المقدمة:

الحمد لله الذي جعلنا بالإسلام وهدانا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وأصلى وأسلم على خير خلق الله المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، ورضي الله عنهم وعن التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد :

فإن القرآن الكريم مصدر الهدى والشفاء للناس أجمعين ، وللمؤمنين خاصة قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مُّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (57) سورة يونس وهو الكتاب الجامع لأصول الدين وفروعه ، عقيدة وشريعة ونظام حياة. أودع الله فيه من كنوز المعرفة ، وأصول العدل ، ومناهج الخير ما يسعد الإنسانية، ويفتح أمامها آفاقاً رحبة في عمارة الكون ، والتعارف والتعامل في ظل دستور قرآني خالد يرفع الحقوق ، ويصون المواثيق والعهود ويبشر الإنسانية المؤمنة بحسن مصيرها في الدار الآخرة إذا هي آمنت بالله واهتدت بهداه : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ (147) سورة النساء الحمد لله القائل في محكم كتابه وتنزيله : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (35) سورة النور الذي منه قوامها ومنه نظامها .. فهو الذي يهبها جوهر وجودها ، ويودعها ناموسها .. ولقد استطاع البشر أخيراً أن يدركوا بعلمهم طرفاً من هذه الحقيقة الكبرى ، عندما استحال في أيديهم ما كان يسمى بالمادة - بعد تحطيم الذرة - إلى اشعاعات منطلقة لا قوام لها إلا النور ؛ ولا " مادة" لها إلا النور فذرة المادة مؤلفة من كهارب واليكترونات ، تنطلق - عند تحطيمها - في هيئة اشعاع قوامه هو النور ؛ فأما القلب البشري فكان يدرك الحقيقة الكبرى قبل العلم بقرون وقرون . ولقد أدركها شاملة كاملة قلب سيدنا محمد رسول الله ﷺ ففاض بها وهو عائد من الطائف ، نافضاً كفيه من الناس ، عائداً بوجه ربه يقول : " أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات ، وصلاح عليه أمر الدنيا والآخرة ، وفاض بها في رحلة الإسراء والمعراج . فلما سألته عائشة : هل رأيت ربك ؟ قال : " نور . أنى أراه (1).

المبحث الأول

حقيقة النور ومفهومه :

أولاً - تعريف النور لغة :

النور الضياء ، والجمع أنوار . والنور أيضا : النفر من الظباء . قال مضر السدي ، وذكر الظباء وأنها قد كنست في شدة الحر :

تدلّت عليها الشمس حتى كأنها من الحرّ ترمى بالسكينة نورها⁽²⁾.

ونسوة نور ، أى نفر من الريبة ، وهو فعل .

وتقول : نرت من الشيء ، أنور نوراً ونواراً ، بكسر النون .

والنور : الضياء . والنور ضد الظلمة . وفي المحكم : النور الضو ، أيّا كان ،

وقيل : هو شعاعه و سطوعه ، والجمع أنوار ونيران ؛ عن ثعلب .

وقد نار نوراً وأنار واستنار ونور ، الأخيرة عن اللحياني ، بمعنى واحد ، أي

أضاء ، كما يقال : بان الشيء وأبان وبيّن وتبين واستبان بمعنى واحد . واستنار به : استمد شعاعه .

ونور الصبح : ظهر نوره ؛ قال :

وحتى يبيت القوم في الصيف ليلة يقولون : نور صبح ، والليل عاتم

وفي الحديث : فرض عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، للجد ثم أنارها زيد بن ثابت أي نورها وأوضحها وبينها .

والتنوير: وقت أسفار الصبح ، يقال : قد نور الصبح تنويراً . والتنوير : الأسفار.

وأنار المكان : وضع فيه النور . وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا

فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ (40) سورة النور. قال الزجاج : معناه من لم يهده الله للإسلام لم

يهتد . والمنار والمنارة : مودع النور . والمنارة : الشمعة ذات السراج⁽³⁾.

ثانيا - تعريف النور اصطلاحاً :

يمكن تعريف النور وفق أربعة أوجه :

يكون لمعنى الإسلام ، قال الله تعالى :﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُنِمْ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ(32)﴾ سورة التوبة يعنى دين الله ، وقال تعالى :﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ " (8)﴾ سورة الصف. يكون لمعنى الإيمان الذي يهتدى به ، قال الله تعالى :﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ " (28)﴾ سورة الحديد

يكون لمعنى هادي أهل السموات والأرض ، قال الله تعالى :﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ " (35)﴾ سورة النور.

يكون بمعنى القرآن ، وما فيه من بيان الحلال والحرام والأمر والنهي ، قال تعالى :﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(8)﴾ سورة التغابن.

يكون بمعنى ضوء القمر ، قال تعالى :﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا " (16)﴾ سورة نوح.

يكون بمعنى الضوء الذي يعطيه الله للمؤمنين يمشون به على الصراط يوم القيامة ، قال تعالى :﴿يَسْئَلُ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ (12)﴾ سورة الحديد ، يكون بمعنى ضوء النهار ، قال الله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (1)﴾ سورة الأنعام المراد بالظلمات هنا الظلمات الحسية ، كما أن المراد بالنور النور الحسي ، لأن اللفظ حقيقة فيهما .

ويرى بعض المفسرين أن المراد بالظلمات ، ظلمات الشرك والكفر والنفاق ، وأن المراد بالنور ، نور الإيمان والإسلام واليقين ، وعلى هذا الرأي يكون المراد بهما معنوياً وحسياً. (4)

النور صفة للنبي ﷺ قال الله تعالى : " يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِآذَنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا " (46/45) سورة الأحزاب ،النور اسم من أسماء الله الحسنی قال تعالى :﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (25) سورة النور وهو الذي يبصر بنوره ذا العماية ، ويرشد بهداه ذا الغواية .

قال ابن القيم : " والله سبحانه وتعالى سمى نفسه نوراً ، وجعل كتابه نوراً ، ورسوله ﷺ نوراً ، ودينه نوراً ، واحتجب من خلقه بالنور ، وجعل دار أوليائه نوراً " (5) .

المبحث الثاني :

حقيقة الظلام ومفهومه :

أولاً : تعريف الظلام لغة :

الظلمة : خلاف النور . والظلمة بضم اللام لغة فيه ، والجمع ظلم وظلمات .

قال الرازي : * يجلو بعينه دجى الظلمات *

وقد أظلم الليل . وقالوا ما أظلمه وما أضواه ، وهو شاذ . والظلام أول الليل .

والظلماء : الظلمة ، وربما وصف بها . يقال : ليلة ظلماء ، أى مظلمة .

وظلم الليل بالكسر وأظلم بمعنى ، عن الفراء .

وأظلم القوم : دخلوا في الظلام . قال تعالى :﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ (37) سورة يس .

وقال الخليل : لقيته أول ذى ظلمة ، أى أول شيء يسد بصرك في الرؤية ، لا

يشتق منه فعل (6) .

والثلاث الظلم : أول الشهر بعد الليالي الدرع ، قال أبو عبيد : ؛ في ليالي الشهر بعد الثلاث

البيض ثلاث درع وثلاث ظلم . وأنشد سيبويه :

فاقسم أن لو ألتقينا وأنتم لكان لكم يوم من الشر مظلم

وأمر مظلم : لا يدرى من أين يؤتى . وظلمات البحر : شدائده . وشعر مظلم :

شديد السواد . وتكلم فأظلم علينا البيت ، اذا سمعنا ما نكره .

والمظلم من الطير : الرخم والغربان . والظلام : عشة ترعى (7) .

ثانيا - تعريف الظلام اصطلاحاً :

قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (1)﴾ سورة الأنعام.

المراد بالظلمات هنا الظلمات الحسية ، كما أن المراد بالنور النور الحسي ، لأن اللفظ حقيقة فيهما ، ولأنهما إذا جعلاً مقرونين بذكر السموات والأرض فإنه لا يفهم منهما إلا هاتان الكيفيتان المحسوستان .

ويرى بعض المفسرين أن المراد بالظلمات ، ظلمات الشرك والكفر والنفاق ، وأن المراد بالنور ، نور الإيمان والإسلام واليقين ، وعلى هذا الرأي يكون المراد بهما معنوياً وحسياً(8).

وعبر القرآن في جانب الظلمات بصيغة الجمع ، وفي جانب النور بالافراد لأن النور واحد ، ومن نتائجه الكشف والظهور ، وتعدد أسبابه لا يغير حقيقته . أما الظلمة فإنها متنوعة بتنوع أسبابها ، فهناك ظلمة الليل ، وهناك ظلمة السجون ، وهناك ظلمة القبور ، وهناك ظلمة الغمام ، وهي تتغير حقائقها بتغير أسبابها . ثم ثمة إشارة الى أمر معنوي وهي : أن ظلمة الإدراك تتعدد حقائقها ، فهناك ظلمة الإنحراف ، وظلمة الأهواء ، والشهوات وطمس القلوب . والنور واحد (9).

المبحث الثالث : النور اسم من أسماء الله الحسنى :

قال الله تعالى : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (25)﴾ سورة النور قوله تعالى : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (35)﴾ سورة النور.

معناه : الظاهر في نفسه بوجوده ، الذي لا يقبل العدم ، المظهر لغيره باخراجه من ظلمة العدم إلى نور الوجود . فوجوده - سبحانه - نور فائض على الأشياء كلها ، وهو الذي

مدّ جميع المخلوقات بالأنوار الحسيّة والمعنويّة ، فهو نور كل ظلمة ، ومظهر كل خفاء ، وهو منور السموات والأرض ، ومضيء الأكوان بالشموس والنجوم والأقمار ، وهو الذي أنار قلوب الذاكرين بضياء ذكره ، وأحيا نفوس العارفين بنور معرفته (10)

قال ابن القيم : (قوله تعالى : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ سورة النور . بكونه منور السموات والأرض ، وهادي أهل السموات والأرض ، فبنوره اهتدى أهل السموات والأرض وهذا إنما هو فعله ، وإلا فالنور الذي هو من أوصافه قائم به . ومنه اشتق له اسم " النور " الذي هو أحد الأسماء الحسنی .

والنور يضاف إليه سبحانه على أحد وجهين : إضافة صفة إلى موصوفها ، وإضافة مفعول إلى فاعله .

فالأول كقوله عزّ وجلّ : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ (69) سورة الزمر . فهذا إشراقها يوم القيامة بنوره تعالى إذا جاء لفصل القضاء .

ومنه قول النبي ﷺ في الدعاء المشهور : " أعوذ بنور وجهك الكريم : أن تضلّني لا إله إلا أنت " .

فأخبر ﷺ : أن الظلمات أشرقت لنور وجه الله ، كما أخبر تعالى : أن الأرض تشرق يوم القيامة بنوره (11) .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال : قام بيننا رسول الله ﷺ ، فقال : " إنّ الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجاب النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه " (12) .

قال الإمام القرطبي : قوله تعالى : " اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ " النور في كلام العرب الأضواء المدركة بالبصر . واستعمل مجازاً فيما صح من المعاني ولاح . فيقال : كلام له نور .. وفلان نور البلد .

فيجوز أن يقال : لله - تعالى - نور ، من جهة المدح ، لأنه أوجد جميع الأشياء ، ونور جميع الأشياء منه ابتداءً ، وعنه صدورها ، وهو - سبحانه - ليس من الأضواء المدركة ، جلّ وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

واختلف العلماء في تأويل هذه الآية : فقيل : المعنى: به وبقدرته أنارت أضواؤها ، واستقامت أمورها ، وقامت مصنوعاتنا ، فالكلام على التقريب للذهن ، كما يقال : الملك نور أهل البلد ، أى به قوام أمرها .
قال ابن عرفة : أى منور السموات والأرض . وقال مجاهد : مدبر الأمور في السموات والأرض .

وقال ابن عباس : المعنى : الله هادي السموات والأرض (13) .

قال ابن كثير : " وقد ثبت في الصحيحين عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يقول : " اللهم لك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن " .

وقال ﷺ في دعائه يوم آذاه المشركون من أهل الطائف : " أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن يحل بي غضبك ، أو ينزل بي سخطك ، لك العتبي حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة الا بك (14) .

قال الشوكاني : " ومعنى النور في اللغة الضياء ، وهو الذي يبين الأشياء ، ويرى الأبصار حقيقة ما تراه ، فيجوز إطلاق النور على الله سبحانه على طريقة المدح ، ولكونه أوجد الأشياء المنورة وأوجد أنوارها ونورها (15) .

قال الفخر الرازي : " فقله : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ سورة النور. أى : ذو نور السموات والأرض هو الهداية ولا تحصل إلا لأهل السموات ، والحاصل أن المراد : الله هادي أهل السموات والأرض وهو قول ابن عباس والأكثرين رضي الله عنهم .
وثانيها : المراد أنه مدبر السموات والأرض بحكمة بالغة وحجة نيرة ، فوصف نفسه بذلك كما يوصف الرئيس العالم بأنه نور البلد ، فانه إذا كان مدبرهم تدبيراً حسناً فهو لهم كالنور الذي يهتدى به إلى مسالك الطرق (16) .

المبحث الرابع - نور النبي ﷺ :

قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا 45﴾ سورة الأحزاب .

قال صاحب الكشف : " جلى الله - تعالى - بنبيه ﷺ ظلمات الشرك ، فاهتدى به الضالون ، كما يجلى ظلام الليل بالسراج المنير ويهتدى به . أو أمد الله بنور نبوته نور البصائر ، كما يمد بنور السراج نور الأبصار . ووصفه بالإنارة لأن من السراج ما لا يضيء إذا قل سليطه - أى : زيته - ودقت فتيلته " (17) .

قال القرطبي : قوله تعالى : " وَسِرَاجًا مُنِيرًا " هنا استعارة للنور الذي يتضمنه شرعه . وقيل : " وَسِرَاجًا " أى هاديا من ظلم الضلالة ، وأنه كالمصباح المضيء . ووصفه بالإنارة لأن من السراج ما لا يضيء ، إذا قل سليطه ودقت فتيلته . وفي كلام بعضهم : ثلاثة تضني . رسول بطيء ، وسراج لا يضيء ، ومائدة ينتظر لها من يجيء . وسئل بعضهم عن الموحشين فقال : ظلام سائر ، وسراج فاتر .

وعن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا 45﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا 46﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا 47﴾ سورة الأحزاب ، دعا رسول الله ﷺ عليا ومعاذاً فقال : " انطلقا فبشرا ولا تعسرا ، فانه قد نزل علي الليلة آية : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا 45﴾ سورة الأحزاب . من النار - " وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ " - قال - : شهادة أن لا إله إلا الله - " بِإِذْنِهِ " - بأمره - " وَسِرَاجًا مُنِيرًا " - قال - بالقرآن . وقال الزجاج : " وَسِرَاجًا " أى : وذا سراج منير ، أى : كتاب نير . وأجاز أيضا أن يكون بمعنى : وتاليا كتاب الله (18) .

أخرج البخاري بسنده من حديث ابن عباس . وكان النبي ﷺ يقول في دعائه : " اللهم أجعل في نفسي نوراً ، وفي بصري نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وعن يميني نوراً ، وعن يساري نوراً ، وفوقي نوراً ، وتحتي نوراً ، وأمامي نوراً ، وخلفي نوراً ، وأجعل لي نوراً " (19) .

أمر الله نبيه باخراج النَّاس من الظلمات إلى النور فقال تعالى: ﴿الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ " (1)﴾ سورة ابراهيم والمعنى : هذا كتاب أنزلناه اليك يا محمد ، وهو القرآن العظيم ، لتخرج الناس به مما هم فيه من ظلمات الكفر والضلال والغي والجهل ، الى نور الإيمان والهدى والرشد ، بما اشتمل عليه من أصول الحكم السديد ، والدعوة الى الحياة الكريمة والمدنية والحضارة السامقة ، كما قال تعالى :﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ (257)﴾ سورة البقرة.

والمعنى : الله الذي بيده ملكوت كل شيء : " وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا " أى معينهم وناصرهم ومتولي أمورهم ، فهو - سبحانه - الذي يخرجهم من ظلمات انكفر ، ومن ضلالات الشرك والفسوق والعصيان الى نور الحق والهداية والتحرر من الأوهام ، أما الذين كفروا فأولياؤهم ونصراؤهم الطاغوت الذي يتمثل في الشياطين والأصنام والأوهام الموروثة والكبرياء والمضلين ، وهؤلاء يخرجونهم بسبب انطماس بصيرتهم وانتكاسهم في المعاصي من نور الايمان والهداية الى ظلمات الكفر والضلالة ، أولئك الموصوفون بتلك الصفات القبيحة أصحاب النار هم فيها خالدون خلوداً مؤبداً .

" يخبر تعالى أنه يهدي من اتبع رضوانه سبل السلام ، فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب الى نور الحق الواضح الجلي المبين السهل المنير ، وأن الكافرين انما وليهم الشياطين تزيّن لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات ، ويخرجونهم ويحيدون بهم عن طريق الحق الى الكفر والإفك . " أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " ولهذا وجد تعالى لفظ النور وجمع الظلمات ؛ لأن الحق واحد والكفر أجناس كثيرة وكلها باطلة (20) .

وقال عز وجل : ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ (9)﴾ سورة الحديد.

قال تعالى :﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (11) ﴿سورة الطلاق .

المبحث الخامس - نور المؤمنين :

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (12) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهَرُهُ مِنْ قَبْلِهِ الْعَذَابُ (13) يَنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ كُنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ تَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (14) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ { (15) ﴿سورة الحديد.

قال ابن كثير : " يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين المتصدقين : أنهم يوم القيامة يسعى نورهم بين أيديهم في عرصات القيامة ، بحسب أعمالهم ، كما قال عبد الله ابن مسعود في قوله تعالى : ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ (12)﴾ سورة الحديد . قال : على قدر أعمالهم يَمْرُونَ على الصراط ، منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم ، وأدناهم نوراً من نوره في إبهامه يتقد مرة ويطفأ مرة . وقال قتادة : ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول : " من المؤمنين من يضيء نوره من المدينة إلى عدن أبين وصنعاء فدون ذلك ، حتى إن من المؤمنين من يضيء نوره موضع قدميه . " وقال سفيان الثوري : إنكم مكتوبون عند الله بأسمائكم وسيماكم وخلالكم ، ونجواكم ومجالسكم ، فإذا كان يوم القيامة قيل : يا فلان ، هذا نورك ، يا فلان ، لا نور لك . وقرأ : " يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ " ، وقال الضحاك : ليس أحد الا يعطى نوراً يوم القيامة ، فإذا انتهوا إلى الصراط طفيء نور المنافقين ، فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا أن يطفأ نورهم كما طفيء نور المنافقين ، فقالوا : ربنا أتمم لنا نورنا . وقال الحسن في قوله : ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ (12)﴾ سورة الحديد ، يعني على الصراط . وقد ذكر ابن أبي حاتم ، أن النبي ﷺ قال : " أنا أول من يؤذن لي يوم القيامة بالسجود ، وأول من يؤذن له برفع رأسه ، فأنظر من بين يدي ومن خلفي ، وعن يميني وعن شمالي ، فأعرف أمتي من بين الأمم ،

" فقال له رجل : يا نبي الله ، كيف تعرف أمتك من بين الأمم ، ما بين نوح الى أمتك ؟ قال : " أعرفهم محجلون من أثر الوضوء ، ولا يكون لأحد من الأمم غيرهم ، وأعرفهم يؤتون كتبهم بأيمانهم ، وأعرفهم بسماهم في وجوههم ، وأعرفهم نورهم يسعى بين أيديهم وذريتهم (21)

أخرج الترمذي بسنده من حديث معاذ بن جبل قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله عز وجل : (المتحابون في جلالي ، لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء) قال أبو عيسى : حديث حسن صحيح (22)

وأخرج مسلم بسنده من حديث عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : " إن المقسطين عند الله على منابر من نور ، عن يمين الرحمن عز وجل . وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا . " (23)

قال القرطبي : " قال العلماء : ليس في الجنة ليل ونهار ، وإنما هم في نور دائم أبداً ، وإنما يعرفون مقدار الليل بارخاء الحجب واغلاق الأبواب ، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب وفتح البواب . " (24)

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (8) سورة التحريم.

قال الفخر الرازي : " قوله تعالى : " يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ " أي لا يخزيه في رد الشفاعة ، والاخزاء الفضيحة ، أي لا يفضحهم بين يدي الكفار ، وقوله : " بَيْنَ أَيْدِيهِمْ " أي : عند المشي " وَبِأَيْمَانِهِمْ " عند الحساب لأنهم يؤتون الكتاب بأيمانهم وفيه نور وخير ، ويسعى النور بين أيديهم في موضع وضع الأقدام وبأيمانهم ، لأن خلفهم وشمالهم طريق الكفرة .

وقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (8) سورة التحريم، قال ابن عباس : يقولون ذلك عند إطفاء نور المناققين إشفاقاً ، وعن الحسن : أنه تعالى متم لهم نورهم ، ولكنهم يدعون تقرباً إلى حضرة الله تعالى ، وقيل أُنْصَحُوا

منزلة من نوره بقدر ما يبصر مواطىء قدمه ، لأن النور على قدر الأعمال فيسألون اتمامه ، وقيل السابقون الى الجنة يمرون مثل البرق على الصراط ، وبعضهم كالريح ، وبعضهم حبوا وزحفا ، فهم الذين يقولون : " رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا " (25) .

المبحث السادس

ظلام الكافرين :

أما { أهل الظلام } ففي قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّلْمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوْقَاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (39) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَفْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ (40) سورة النور .

أنه سبحانه لما بين حال المؤمن ، وأنه في الدنيا يكون في النور وبسببه يكون متمسكا بالعمل الصالح ، ثم بين أنه في الآخرة يكون فائزا بالنعيم المقيم والثواب العظيم ، أتبع ذلك بأن بين أن الكافر يكون في الآخرة في أشد الخسران ، وفي الدنيا في أعظم أنواع الظلمات .

قال تعالى : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَفْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ (40) سورة النور .

قال ابن كثير : " أي من لم يهده الله فهو هالك جاهل حائر كافر ، كما قال تعالى : " من يضل الله فلا هادي له " ، وهذا مقابلة ما قال في مثل المؤمنين : " يهدي الله لنوره من يشاء " فنسأل الله العظيم أن يجعل في قلوبنا نوراً ، وعن إيماننا نوراً ، وعن شماننا نوراً ، وأن يعظم لنا نوراً . " (26) .

قال الطبري : (قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ ﴾ (40)) سورة النور . ضرب الله مثلاً آخر للكافر ، فهو يتقلب في خمس من الظلم : فكلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة إلى النار . وقوله

تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا (40)﴾ سورة النور. يقول: من لم يرزقه الله إيماناً وهدى من الضلالة ومعرفة بكتابه، "فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ" يقول: فما له من إيمان وهدى ومعرفة بكتابه (27).

المبحث السابع- نور الكتب السماوية :

نور القرآن الكريم :

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا (174)﴾ سورة النساء ، والمعنى : يا أيها الناس ، قد جاءكم برهان ساطع ودليل قاطع من ربكم ، يبين لكم حقيقة الإيمان بالله وأنظمة المجتمع الصالحة لحياة أفضل ، وهو النبي محمد ﷺ ، وأنزلنا إليكم مع هذا البرهان نوراً مبيناً ، أي ضياء واضحاً على الحق ، وهو القرآن الكريم الذي جاء لتصحيح العقيدة والنظام ، فقرر التوحيد الخالص ، وحارب الوثنية والشرك ، وأبان زيف اليهودية والنصرانية المحرفة الحالية ، وأرسى معالم الهداية ، وأوضح طريق العبادة الصحيحة لله تعالى ، ووضح أسس الأخلاق وأنظمة الحياة الرشيدة في السياسة والحرب والسلم والاقتصاد والاجتماع وعلوم الكون ، فكان ذلك برهاناً على كون هذا الدين هو دين الحق الذي لا معدل عنه ولا مثيل له (28).

وقال تعالى : ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ " (157)﴾ سورة الأعراف.

قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ "منهم" وَعَزَّرُوهُ (157)﴾ سورة الأعراف. أي أعانوه ومنعوه حتى لا يقوى عليه عدو ، أي حاموا عنه ، "النورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ " أي القرآن ، وإنما أنزل مع جبريل ، فالمراد : أنزل مع نبوته ، وصارت نبوته مصحوبة بالقرآن (29).

وقال تعالى : ﴿وكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (52)﴾ سورة الشورى.

قوله تعالى : ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (52) سورة الشورى أي : جعلنا هذا القرآن الذي أوحيناه إليك ضياء

ونوراً نهدي به من نشاء هدايته ، ونخرجه من ظلمات الجهالة والضلال إلى الهداية والمعرفة ، ونرشده إلى الدين الحق (30) .

وقال تعالى : ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يَتِمَّ نُورُهُ وَكُلُّ كَرِهٍ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكُلُّ كَرِهٍ الْمُشْرِكُونَ " (33/32) ﴾ سورة التوبة.

المراد بالهدى القرآن الكريم المشتمل على الإرشادات السامية ، والتوجيهات القويمة ، والأخبار الصادقة ، والتشريعات الحكيمة . والمراد بدين الحق : دين الإسلام الذي هو خاتم الأديان . وقوله : ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ (33) سورة التوبة. من الإظهار بمعنى الإعلاء والغلبة بالحجة والبرهان ، والسيادة والسلطان (31) .

نور التوراة :

جعل الله تعالى في كتابه التوراة نورا ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوْنَ النَّاسَ وَآخِشُونِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ " (44) ﴾ سورة المائدة.

قال الفخر الرازي : في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ (44) سورة المائدة . العطف يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه ، فوجب حصول الفرق بين الهدى والنور ، فالهدى محمول على بيان الأحكام والشرائع والتكاليف ، والنور بيان للتوحيد والنبوة والمعاد . قال الزجاج : " فِيهَا هُدًى " أى بيان الحكم الذي جاءوا يستفتون فيه النبي ﷺ " وَنُورٌ " بيان أن أمر النبي ﷺ حق . (32)

قال الشيخ طنطاوي : قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ (44) سورة المائدة . والمراد بالهدى ، ما اشتملت عليه من بيان للأحكام والتكاليف والشرائع التى تهدي الناس إلى طريق السعادة . والمراد بالنور : ما اشتملت عليه من بيان للعقائد السليمة ، والمواظ على الحكمة ، والأخلاق القويمة (33) .

وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (91) سورة الأنعام.

نور الإنجيل :

جعل الله تعالى في كتابه الإنجيل نورا ، قال تعالى : ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَتُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (46) سورة المائدة. وصف الله تعالى الإنجيل الذي أعطاه لعيسى - عليه السلام - بخمس صفات : أولها - أنه فيه "هُدًى" أى : فيه هداية للناس إلى الحق الذي متى اتبعوه سعدوا في دنياهم وآخرتهم .

وثانيها - أنه فيه "تُور" أى : ضياء يكشف لهم ما لُتبس عليهم من أمور دينية ودنيوية . وثالثها - كونه "مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ" أى أن الإنجيل مؤيد ومقرر لما جاءت به التوراة من أحكام وآداب وشرائع أنزلها الله فيها .

ورابعها - كونه : "هُدًى" أى : هو بذاته هدى فضلا على اشتماله عليه . وخامسها - كونه : "مَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ" أى : ، تذكيرا لهم بما يرق له القلب ، وتصفو به النفس ، وتنزجر به القلوب عن غشيان المحرمات (34) .

قال الفخر الرازي : إن الإنجيل هدى بمعنى أنه اشتمل على الدلائل الدالة على التوحيد والتنزيه ، وبراءة الله تعالى عن الصاحبة والولد والمثل والضد ، وعلى النبوية وعلى المعاد ، فهذا هو المراد بكونه هدى ، وأما كونه نوراً ، فالمراد به كونه بيانا للأحكام الشرعية ولتفاصيل التكليف ، وأما كونه مصدقا لما بين يديه ، فيمكن حمله على كونه مبشراً بمبعث محمد ﷺ وبمقدمه ، وأما كونه هدى مرة أخرى فلأن اشتماله على البشارة بمجي محمد ﷺ سبب لاهتداء الناس إلى نبوة محمد ﷺ ، وأما كونه موعظة فلاشتمال للإنجيل على النصائح والمواظب والزواجر البليغة المتأكدة ، وإنما خصها بالمتقين لأنهم هم الذين ينتفعون بها. (35)

المبحث الثامن - نور الجنة :

جعل الله دار أوليائه نوراً ، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّجِيمِ " (19)﴾ سورة الحديد.

أي : إن الذين أقرروا بوحداية الله وصدقوا رسله ، هم في منزلة الصديقين ، قال مجاهد : كل من آمن بالله ورسله فهو صديق ، والذين استشهدوا في سبيل الله ، لإعلاء كلمة الله ودينه ، ورفع راية الحق وأمله ، لهم الثواب العظيم عند ربهم ، والنور الموعود به الذي يسعى بين أيديهم وبإيمانهم ، وهذا إشارة الى صنفين من أصناف المؤمنين المخلصين الأربعة ، وهم الأنبياء ، والصديقون والشهداء والصالحون ، المذكرون في قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا " (69) سورة النساء. وقال تعالى : " وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشَّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ " (69) سورة الزمر.

المراد بالأرض في قوله - تعالى - : ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا (69)﴾

سورة الزمر . أرض المحشر .

وأصل الإشراق الإضاءة . يقال : أشرقت الشمس إذا أضاعت ، وشرقت : إذا طلعت .

قال ابن كثير : " وقوله : ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا (69)﴾ سورة الزمر.

أي : أضاعت - الأرض - يوم القيامة . إذا تجلى الحق - تبارك وتعالى - للخلائق لفصل القضاء (36).

أخرج الإمام مسلم بسنده من حديث عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : "إن المقسطين عند الله على منابر من نور ، عن يمين الرحمن عز وجل . وكلتا يديه يمين ؛ الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا (37).

وأخرج الترمذي بسنده من حديث معاذ بن جبل قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " قال الله عز وجل : (المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء) " قال أبو عيسى : حديث حسن صحيح (38).

قال القرطبي : " قال العلماء : ليس في الجنة ليل ونهار ، وإنما هم في نور دائم أبداً ، وإنما يعرفون مقدار الليل بارخاء الحجب وإغلاق الأبواب ، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب وفتح الأبواب . ذكره أبو الفرج بن الجوزي " (39).

قال ابن تيمية : " والجنة ليس فيها شمس ولا قمر ، ولا ليل ولا نهار ، لكن تعرف البكرة والعشية بنور يظهر من قبل العرش (40).

وقد حضّ النبي ﷺ عليها أصحابه وأمه ، فوصفها وجلاها لهم ليخطبوا ، وقال : " ألا مشمر للجنة ؟ فإنها - ورب الكعبة - نور يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وزوجة حسناء ، وفاكهة نضيجة ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد " - الحديث - فقال الصحابة : يا رسول الله ؛ نحن المشمرون لها ، فقال : " قولوا إن شاء الله (41).

المبحث التاسع - نور السموات والأرض :

قال الله تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْمِلُونَ (1)﴾ سورة الأنعام.

قال الشوكاني : (اختلف أهل العلم في المعنى المراد بالظلمات والنور ، فقال جمهور المفسرين : المراد بالظلمات سواد الليل ، وبالنور ضياء النهار . وقال الحسن : الكفر والإيمان . والأولى أن يقال إن الظلمات تشمل كل ما يطلق عليه اسم الظلمة ، والنور يشمل كل ما يطلق عليه اسم النور ، فيدخل تحت ذلك ظلمة الكفر ونور الإيمان ، قال تعالى : ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (122)﴾ سورة الأنعام ، وأفرد النور لأنه جنس يشمل جميع أنواعه ، وجمع الظلمات لكثرة أسبابها وتعدد أنواعها (42).

قال الفخر الرازي : (قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ (1)﴾ سورة الأنعام ، أى ظلمة الشرك والنفاق والكفر . والنور يريد نور الإسلام والإيمان والنبوة واليقين .

انما قدم ذكر الظلمات على ذكر النور لأجل أن الظلمة عبارة عن عدم النور عن الجسم الذي من شأنه قبول النور (44) .

المبحث العاشر : نور الشمس والقمر :

قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴾ (16)

سورة نوح

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ﴾ (16) سورة نوح وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا " أى وجعل سبحانه بقدرته القمر في السماء الدنيا نورا للأرض ومن فيها . وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴾ (16) سورة نوح . أى : كالسراج في إضاءتها وتوهجها وإزالة ظلمة الليل ، إذ السراج هو المصباح الزاهر نوره ، الذي يضيء ما حوله . قال الآلوسي : (قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ﴾ (16) سورة نوح أى منورا لوجه الأرض في ظلمة الليل ، وجعله فيهن مع أنه في إحداهن - وهي السماء الدنيا - ، كما يقال زيد في بغداد وهو في بقعة منها .

" وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا " يزيل الظلمة .. وتنوينة للتعظيم ، وفي الكلام تشبيه بليغ ، ولكون السراج أعرف وأقرب ، جعل مشبها به ، ولاعتبار التعدي إلى الغير في مفهومه بخلاف النور ، كان أبلغ منه (45) .

قال بعض العلماء : وفي جعل القمر نوراً ، إيماء إلى أن ضوء القمر ليس من ذاته . فإن القمر مظلم . وإنما يستضيء بانعكاس أشعة الشمس على ما يستقبلها من وجهه ، بحسب اختلاف ذلك الاستقبال من تبعض وتمام ، وهو أثر ظهوره هلالاً .. ثم بدرًا . وبعكس ذلك جعلت الشمس سراجاً ، لأنها ملتهبة ، وأنوارها ذاتية فيها . صادرة عنها إلى الأرض وإلى القمر . مثل أنوار السراج تملأ البيت (46) .

وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَآزِلَ لَتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّعَاتِ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (5) سورة يونس والمعنى : الله - تعالى - وحده الذي جعل لكم الشمس ذات ضياء ، وجعل لكم القمر ذات نور ، لكي تتنعموا بهما في مختلف شئونكم .

قال الجمل : (وخص الشمس بالضياء لأنه أقوى وأكمل من النور ، وخص القمر بالنور لأنه أضعف من الضياء ، ولأنهما إذا تساويا لم يعرف الليل من النهار ، فدل ذلك على أن الضياء المختص بالشمس أكمل وأقوى من النور المختص بالقمر .)⁽⁴⁷⁾ هذا دليل ، ومما يدل على التفرقة بين الشمس والقمر في نورهما قوله - تعالى - : ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴾ (16) سورة نوح وقوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ (61) سورة الفرقان

المبحث الحادي عشر - الصلاة نور :

إن الصلاة أعظم شعائر الإسلام ، بل هي الركن الركين ، والصلة بين العبد وربّه ، ولذلك جعلها الله نوراً يستضاء به في دياجير الظلام . تتير للمسلم الطريق المستقيم ، وتهديه إلى الصراط القويم ، وتنتهي عن الفحشاء والمنكر .

أخرج الإمام مسلم بسنده حديث أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : " الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملأ (أو تملأ) ما بين السموات والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدوا فبايع نفسه فمعتقها أو موبقها (48) .

قال النووي : " وأما قوله ﷺ : " الصلاة نور " فمعناه : أنها تمنع من المعاصي ، وتنتهي عن الفحشاء والمنكر ، وتهدي إلى الصواب . كما أن النور يستضاء به . وقيل معناه : أنه يكون أجراً نوراً لصاحبها يوم القيامة .

وقيل : لأنها سبب لاشراق المعارف ، وانشراح القلب ، ومكاشفات الحقائق لفارغ القلب فيها ، وإقباله إلى الله تعالى بظاهره وباطنه ، وقد قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (153) سورة البقرة . وقيل معناه أن تكون نوراً ظاهراً على وجهه يوم القيامة ، ويكون في الدنيا أيضاً على وجهه البهاء ، بخلاف من لم يصل والله أعلم⁽⁴⁹⁾ .

وأخرج أبو داود والترمذي من حديث بريدة عن النبي ﷺ قال : " بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة " وقال الترمذي : حديث غريب⁽⁵⁰⁾ .

أخرج الدارمي بسنده من حديث أبي الدرداء ، عن النبي ﷺ قال : " من مشى في ظلمة ليل إلى الصلاة ، آتاه الله نورا يوم القيامة " (51) .

وأخرج الدارمي أيضا بسنده من حديث عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ أنه ذكر الصلاة يوما فقال : " من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة من النار يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نوراً ولا نجاة ولا برهاناً ، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبى بن خلف " (52) .

الخاتمة :

إن أعظم نعيم في الجنة هو النظر إلى وجه الله العظيم ، وهو نور واسمه النور ، وصفته النور ، ودينه نور ونبيه نور ، وجنته نور ، وبنوره يستضيء أولياؤه يوم القيامة ... فإذا كان أعظم نعيم في الجنة هو رؤية وجهه الذي يزداد به الناظر والرائي حسنا وجمالا ، ونورا وبهاء ، فلا بد أن تكون داره التي أعدها لأوليائه ؛ نور على نور ، حتى تكون أعظم في النعيم ، وكيف يكون نعيم من دون نور وحبور، وضياء ولؤلؤ ، وذهب وفضة ؟ وهذا وغيره بفضل الله ومنته وكرمه تزداد الجنة به ضياء وبهجة ونورا .

وقد ثبت بالكتاب والسنة أن الجنة نور . فنسأل الله أن يجعلنا ممن ينعم بنوره ، يوم يسعى المؤمنون بنورهم وبإيمانهم ، يقولون : اللهم أتمم لنا نورنا ، وثبت أقدامنا ، ونعم أبصارنا وقلوبنا بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة يا رب العالمين . صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الهوامش والمراجع

- 1 - صحيح مسلم - كتاب الإيمان 1/ 161 حديث رقم 291
- 2- أنظر : الصحاح للجوهري - ط دار العالم للملايين 838/2
أنظر: لسان العرب لابن منظور 321/14
- 4- في ملكوت الله مع أسماء الله للشيخ عبد المقصود محمد سالم ص 35
- 5- اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية لابن القيم ط 1401هـ ص 9
- 6- أنظر : الصحاح للجوهري - ط دار العالم للملايين باب (ظلم) 1976/4
- 7- أنظر: لسان العرب لابن منظور 2760/9 باب (ظلم)
- 8- أنظر :التفسير الكبير للفخر الرازي 5/4
- 9- أنظر مجلة لواء الإسلام العدد 5 تفسير سورة الأنعام للشيخ محمد أبي زهرة
- 10- في ملكوت الله مع أسماء الله للشيخ عبد المقصود محمد سالم ص 115
- 11-التفسير القيم لابن قيم الجوزية ط دار ابن الهيثم- القاهرة ص 355
- 12- رواه مسلم في "الإيمان" 179/293
- 13- أنظر: تفسير القرطبي 256/12
- 14- أنظر : تفسير ابن كثير 61/6
- 15- فتح القدير للشوكاني 41/4
- 16- التفسير الكبير للفخر الرازي 195/23
- 17- تفسير الكشاف 547/3
- 18- أنظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 368/7
- 19- رواه البخاري ، الدعوات ، باب الدعاء إذا انتبه من الليل حديث رقم 6316
- 20- أنظر : التفسير الوسيط د/ محمد سيد طنطاوي 1/ 591 ط/ دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع - يناير 1997م.
- 21- أنظر تفسير ابن كثير 4/ 365
- 22 - سنن الترمذي ، كتاب الزهد ، باب في الحب لله 4/ 598 حديث رقم 2390
- 23- صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام، حديث رقم 18، 1458/3
- 24- التذكرة للقرطبي 504
- 25- التفسير الكبير للفخر الرازي 29/ 42

- 26- تفسير ابن كثير 365/3
- 27- تفسير الطبري 180/18
- 28- التفسير الوسيط 40/3
- 29- التفسير المنير 125/5
- 30- التفسير المنير 112/13
- 31- أنظر تفسير ابن كثير 434/2
- 32- أنظر التفسير الكبير للفخر الرازي 4/12
- 33- أنظر التفسير الوسيط د. محمد سيد طنطاوي 164/4
- 34- أنظر التفسير الوسيط د. محمد سيد طنطاوي 176/4
- 35- أنظر التفسير الكبير 8/12
- 36- أنظر : التفسير المنير لوهبه الزحيلي 342/27
- 37- تفسير ابن كثير 36/1
- 38- صحيح مسلم كتاب الإمارة ، باب فضيلة الإمام ، حديث رقم 18 - ج 3/1458
- 39- سنن الترمذي ، كتاب الزهد ، باب في الحب في الله 4/598 حديث رقم 2390
- 40- التذكرة للقرطبي ص 504 وأنظر: الجنة والنار للأشقر ص 174
- 41- فتاوى ابن تيمية 4/312 - أنظر: الجنة والنار للأشقر ص 174
- 42- ضعيف أخرجه ابن ماجة (2334) وضعفه البوصيري ، وكذا الألباني في "الضعيفة " 3385
- 43-فتح القدير للشوكاني 122/2
- 44- التفسير الكبير 125/12
- 45- تفسير الآلوسي 75/29
- 46- أنظر: تفسير التحرير والتنوير للشيخ ابن عاشور 204/29
- 47- حاشية الجمل على الجلالين 334/2
- 48- صحيح مسلم كتاب الطهارة ، باب فضل الوضوء 1/203 رقم 223
- 49- صحيح مسلم بشرح النووي 101/3
- 50- سنن الترمذي ، كتاب الصلاة ، باب ما جاء في فضل الصف الأول 1/437 رقم 225
- 51- سنن الدرامي 1/270 رقم الحديث 1429 ، كتاب الصلاة ، باب فضل المشي إلى المساجد في الظلم.
- 52- سنن الدرامي 2/211 رقم الحديث 2724